﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التَّوبة: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كانِزُ المالِ يُعذَّب بالنَّار يومَ القيامة بما يتناسب وعملَه السَّيِّءَ في الدُّنيا

لـمَّا أخبر اللّهُ جلَّ وعلَا في الآية السَّابقةِ عن جرائم كثيرٍ مِن رؤساء أهل الكتابِ، في أَكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل والصَّدِّ عن سبيل اللّه، وأخبرَ عن كانِزي الذَّهبِ والفِضَّةِ منهم ومِن غيرهم، الذين يبخلون بإنفاقها ويَكْنِزونها، وبَشَّر في الدُّنيا هؤلاء الكانزين بالعذاب الأليم؛ أخبر هنا في هذه الآية عن كيفيَّةِ ومَشْهَدِ تعذيبِهم بهذه الكُنوزِ في الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحْمَىٰ﴾: مِنَ الحَمْي، وهي الحرارةُ المُتولِّدَةُ مِنَ الجواهِر المَحميَّة، كالنَّار والشَّمس، ومنه الإحماءُ على الحديدِ والمعادن، أي: الإيقادُ عليها بالنَّار حتَّى تَسْخَنَ، فيصيرَ لها حَمْوٌ أو حَمْيٌ، أي: حرارةٌ شديدة تمنع مِنَ الاقتراب منها، والمراد هنا: إدخالُ الكُنوزِ النَّارَ لِيُوقَد عليها، حتَّى تَحمَى وتشتدَّ حرارتُها للعذاب[1].

2) ﴿فَتُكْوَىٰ﴾: مِنَ الكَيِّ، وهو إحراقُ الجِلْدِ بحديدةٍ ونحوِها، وهو مِنَ الألفاظ التي تَخْتَصُّ بالنَّار وما في معناها مِنَ الأجرام السَّاخنة، والكَيُّ هنا بالكُنوز يعني: إلصاقَها وهي مُلْتَهِبَةٌ حامِيَةٌ بجِلودِهم، حتَّى تَصِلَ إليها حرارتُها وتؤثِّرَ فيها؛ للتَّعذيب[2].

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (حما)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمو).
(2) ابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كوي).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَشِّرْ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - هؤلاء الكانِزينَ الأشِحَّاءَ بما آتاهمُ اللهُ مِن فَضْلِه، بعذابٍ أليمٍ، يُعذِّبُهُمُ اللهُ به في يومٍ يُوقَدُ فيه بالنَّار على تلك الكُنوز حتَّى تَحْمَى وتشتَدَّ حرارتُها، فيُحرقُونَ بها على جِباهِهم ونواصيهم التي هي أشرفُ أعضائهم، كما تُحرَقُ بها جُنوبُهم وظهورُهم وسائرُ أجسادهم، ويُقال لهم تحسيرًا وتوبيخًا: هذا المالُ الذي تُعَذَّبونَ به، هو ما كَنزتُمُوه لأنفسِكم وخَصَصْتُمُوها به فلم تُنفِقوه؛ ظَنًّا منكم أنَّ كَنْزَه نافِعٌ لكم، ولكنَّه صار أَضرَّ شيءٍ يكون على صاحبِه، فأنتُم اليومَ تُعذَّبونَ به، فذُوقُوا أَلَمَه وعقوبتَهُ، كما ذُقْتُم لَذَّتَهُ وهَنَاءَتَه.

كيفيةُ عذابِ الله يومَ القيامة لِمن كَنز الذهبَ والفضةَ من غير إنفاق

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قولِه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ ممَّا قبلَه:

الظَّرْفُ في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾، مُتَعلِّقٌ بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، كأنَّه قال: يُعذَّبُون يومَ يُحمَى، ولا يُقال: إنَّه مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ لأنَّ البِشارةَ لا تكون في ذلك اليوم بل في الدُّنيا، ويُستَفادُ مِن هذا: أنَّ مُتَعَلَّقَ البِشارةِ محذوفٌ للتَّعميم والاختصار، فلم يُحدِّد في أي مكانٍ أو زمنٍ تكون البِشَارةُ، وعليه: فقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ ليس مُتَعَلَّقًا له[1].

إهانَةُ الكانزينَ في الدُّنيا بِبِشارة العذاب، وتعذيبُهم في الآخِرةِ بما كَنَزوه بُخْلًا وما كَسَبوهُ نَهْبًا

براعةُ استِهلالِ الآيةِ بالظَّرف:

استهلَّتِ الآيةُ في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ بالظَّرفِ الدَّالِّ على اليوم الآخِر، تعظيمًا لشُؤونِه التي تكون فيه، وهو الوعيدُ بتعذيبِهم بِما اكْتَنَزُوا، فتعظيمُ المظروفِ لازِمٌ عن عَظَمَةِ الظَّرفِ الذي وقَع فيه.

يومُ القيامةِ عظيمٌ في أحداثِه وشؤونِه

دلالةُ الفِعل بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه:

سِيْقَ الفِعلُ ﴿يُحْمَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ لتَوفُّر العنايةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/229.

والغَرَضِ على الفعلِ ومفعولِه الذي وقع عليه دونَ الفاعِل، فالغَرَضُ: هو الإخبارُ بأداةِ التَّعذيب والمُعذَّب بها، وأمَّا الفاعِلُ: فعِرفانُه يُغني عن تعريفِه في التَّركيبِ بإظهاره، فالذي يُحمِي النَّارَ هو اللَّهُ ﷻ أو خزَنَةُ النَّارِ بإذنٍ مِنَ الله، وإسنادُ الإحماءِ إلى النَّار مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ النَّار لا تَحمَى بنفسِها، بل لا بُدَّ مِن فاعِلٍ يُحميها ويُذْكِيَهَا.

الفاعلُ الحقيقيُّ لآثارِ الأشياء هو اللهُ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه

دلالةُ تذكيرِ الفعل:

الذي يَحمَى هو صفائحُ الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، والإحماءُ هو الإيقاد، فالنَّارُ تُوقَدُ، أي: تشتعلُ بالحرارةِ والسُّخونةِ والإحراق، فينتقلُ أثرُها إلى الأجسام التي تَلتَصِقُ بها، فتَحْمَى تلك الأجرامُ وتَسْخُن، فجُمْلةُ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أصلُها: يوم تُحمَى الكُنوزُ بالنَّار، بدليل التَّأنيث بعدَها في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ أي: بالمعادن المَكنوزة، ولكنَّه هنا عدَلَ عن تأنيث الفعل (تُحمَى) إلى تذكيره ﴿يُحْمَىٰ﴾؛ لأنَّه جعلَ الإحماءَ للنَّارِ مبالغةً، فكأنَّه قال: يومَ يُحمَى على النَّار، "فليس المرادُ أنَّ تلك الأموال تَحمَى على النَّار، بل المراد أنَّ النَّار تَحمَى على تلك الأموال التي هي الذَّهب والفِضَّة"، فكأنَّ هناك نارًا تُحمِي النَّارَ التي تُحيطُ بما اكتنزوه، ووجْه المبالغة في إسناد الإحماء إلى النَّار: أنَّ النَّار أصلًا ذاتُ حَمْيٍ، فهي حاميَةٌ في ذاتِها، فإذا قلتَ: إنَّكَ أحمَيتَها على ما فيها، ولم تقل: إنَّك أحمَيْتَ ما فيها بها، كان ذلك في معنى قوله: أشعلتُ المشتَعِلَ، ولَيْلٌ أَلْيَل، وظِلٌّ ظليل؛ لأنَّه إذا كانت مادَّة الإحراقِ هي التي تُحمَى، فكيف بما فيها؟! ووجْهُ العدولِ مِن تأنيث الفعل إلى تذكيره: أنَّه حَذفَ النَّارَ وأسندَ الفعلَ ﴿يُحْمَىٰ﴾ إلى الجار والمجرور ﴿عَلَيْهَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المقصود مِنَ المبالغة في إحماء النَّارِ، هو إحماءُ ما فيها مِنَ الكنوز والأموال الباطلة، فانتقل مِن صيغة التَّأنيث إلى صيغة التَّذكير؛ لأنَّ النَّار تأنيثُها لفظيٌّ، والفعلُ غيرُ مُسنَدٍ في الظَّاهر إليها، بل إلى قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾

زيادةُ إحماء النارِ من مضاعفة العذابِ التي تقابلُ كنزَ الأموالِ ومنعَ نفقته الواجبة

فذكَّر الفِعلَ مع جواز الوجهين، لئَلَّا يَطّرِدَ مع تأنيث الفعل في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾، لِتبْقَى الدّلالةُ على إحماء النَّار مع إحماء الكنوز؛ لتهويل المنظرِ، كأنَّه قال: النَّارُ تَحمَى والكُنوزُ كذلك، فهو إحماءٌ مُغلَّظٌ لا يتعلَّق بالكنوز فقط، ولو قال: (تحمَى) لدَلَّ على إحماءٍ واحد، هو إحماءُ الكنوزِ، دونَ اقترانِه بمعنى المبالغة بإحماء النَّار كذلك[1].

معنى الجارِّ والمجرور، ودلالتُه:

النَّارُ تَعلُو كُنُوزَهُم التي اسْتَعلَوا بها في الدُّنيا على الخَلْق

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، يعود على الأموال المكنوزة مِنَ الذَّهب والفِضَّة، والجرُّ بـ (على) أفاد الاستعلاءَ المجازيَّ المُتَضَمِّنَ لمعنى استيلاءِ الحَمْيِ، وهو شِدَّة الحرارة على معادِن الكُنوز، فكأنَّ النَّارَ لمَّا أحاطتْ بها مِن كلِّ جانبٍ بحَمْيِها وحرِّها، وغابت تلك الكُنوزُ في باطنِها، كانتْ كالمُطبَقِ عليه الذي لا يَجِدُ مَنْفَسًا ولا بَحبُوحَة، ممَّا قد استولى عليه وأطبَق[2].

نُكْتَةُ مجيءِ الضَّمير على معنى الجَمْع:

يَغلِبُ إطلاقُ (الكَنْز) على الكَثْرةِ الكاثِرة في النُّقود

جاء الضَّمير في قوله: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ على معنى الجَمْع، والمراد به: كنوزُ الذَّهَبِ والفِضَّة، ولم يَقُل: (يُحمَى عليهما) بالتَّثنيَة، أي: الذَّهَب والفِضَّة، فهما شيئان؛ لأنَّ المرادَ بهما دنانيرُ ذهبٍ ودراهمُ فضةٍ كثيرة، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: "أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز"[3]؛ و"لأنَّه ليس المرادُ بهما مِقدارًا مُعيَّنًا منهما، ولا الجنسَ الصَّادقَ بالقليل والكثير، بل المرادُ الكثيرُ مِنَ الدَّنانير والدَّراهم، لأنَّه الذي يكون كَنْزًا، فأتى بضمير الجَمْع للدّلالةِ على الكَثْرةِ، ولو أتى بضمير التَّثْنية احتَمَل خلافَه"[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/268، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/39، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/237، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/280.

دلالة حرفِ الوِعاء (في):

مَـآلُ الكـانـزيـنَ مـع كـنـوزِهِـم إلى تَـعْـذِيـبِـهِـم في جـهـنَّـم، بعد ظُـهـورِهِـم وشُيوعِ صِيتِهِم في الدُّنيا

في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ تصويرٌ لاستغراقِ النَّارِ بإحراقِها وحَرِّها كلَّ جُزءٍ مِن أجزاء الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، استغراقِ المُستولي على مَن يَنْتَهِبُه، فالنَّار تنتَهِبُ أموالَهم وتستولي عليها، وذلك بدلالة حرفِ الاستعلاء، ثمَّ يزداد الموقِفُ هَوْلًا، بدلالة حرف الوعاء (في)، من قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فلم يقل: (يُحمَى عليها فتكوى بها)؛ لِظُهور أنَّ الإحماء والاكتواء لا يكون إلَّا بالنَّار، فلمَّا عبَّر بحرف الوعاءِ (في) أفاد أنَّ الإحماء عليها حاصِلٌ، وهي مشمولةٌ في النَّار، والنَّارُ وِعاءٌ لها يستوعبُها، والكنوزُ بداخِلِه غائبةٌ في باطنِه، وهو مُبالغةٌ في وَصْفِ درجةِ التَّعذيب الذي سيقَعُ بها؛ لِبلوغِها الغايةَ في إحمائِها[1].

بلاغةُ المُبالغة في إضافة النَّار إلى جهنَّم:

تَحوُّلُ الكانزينَ مِن بُعْدِ المنزلةِ في الدُّنيا إلى بُعدِ القَرارِ في قَعْرِ جهنَّم

وَردَ السِّياق بإضافة النار إلى جهنَّم، إذ لم يقل: (يُحمَى عليها في النَّار)، بل أضاف المُسَمَّى إلى الاسم، من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه عند اختلافِ اللَّفظين، فالنَّارُ وجهنَّم شيءٌ واحد، إلَّا أنَّ اختلاف لفظَيهما أنزلَهُما منزلةَ المُتغايرَين، فَحَسُنَتِ الإضافةُ لذلك، وهي إضافةٌ شبيهةٌ بالمَحضة، وغرضُها: المبالغةُ في حقيقةِ النَّار وإحمائِها، ومِن بديع النَّظم: اختيارُ إضافةِ النَّار إلى (جهنَّم) خاصَّة، دون غيرها مِن أسماء النَّار؛ لدلالة جهنَّم على بُعدِ القَعْر وعُمْقِ الجوف، الذي يُؤذِنُ بمعنى الإطباق والإحاطة، وغيابِ الشَّيء في باطنها، بما يتَّفِق ويُناسِبُ مدلولَ حَرْفَي الاستعلاءِ والوعاءِ في: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، و﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فسبحانَ مَن أجرى كلامَه بحسابٍ ومِيزان[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/55، والهرويّ، إسفار الفصيح: 1/215، والأنباريّ، الإنصاف: 2/436، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/10، وابن مالك، شرح الكافية: 2/242، وابن مالك، شواهد التوضيح، ص: 248، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهنم).

موقعُ جملةِ: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ ممَّا قبلَه:

جملة: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، فالفاء عاطفة، وسببُ الوصل بالفاء دون غيرها: الإسراعُ بتعذيبِهم بها فورَ إحمائها، وهو مِنَ الاستطراداتِ المُتتابعة في هذه الآية، التي تتوفَّر على المبالغة في العذاب، في كلِّ مرحلةٍ مِن مراحله، بكلِّ لفظٍ مِن ألفاظها، والعياذ بالله. واصطفاءُ العطفِ بالفاء؛ لِلإشعار بأنَّ الكَيَّ مُترتِّبٌ عنِ الإحماء تَرتُّبَ النَّتيجةِ عن سببِها، فكأنَّ المعنى: أُحميَ عليها لِكَيِّهم بها، فالإحماءُ جُعِلَ سببًا للكَيِّ، ولا يَخفى ما فيه مِنَ التَّهويل والتَّرهيب العظيم[1].

الـكَـنْـزُ كـان سببًا في بَسْطَةِ أجسادهم، فآلَ سببًا في إتلافِها

مرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿بِهَا﴾، وأثرُه في المعنى:

الضَّمير في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ يعودُ على الكنوزِ التي أُحميَ عليها، أو على أقرب مذكورٍ، وهو ﴿جَهَنَّمَ﴾[2]. وعلى الأوَّل: فالباء للتَّعديَة والنَّقل؛ لأنَّ الكيَّ مُضَمَّنٌ معنى الإحراق، فهو في معنى: أحرقَهم بها، فالباء تُحاكي همزةَ التَّعدِيَة، أو الباءُ بمعنى الاستعانة؛ لدخولها على الواسطة التي حصل بها الفعل، فآلةُ الكَيِّ هي الكُنوزُ التي دَلَّ عليها الضَّمير. وعلى الثَّاني: فالباء بمعنى الظَّرفيَّة، أي: تُكْوى في جهنَّم، وعلى كلا المعنيين أفادتِ الإلصاقَ الحقيقيَّ؛ لأنَّ الكَيَّ بالشَّيء، يعني: إلصاقَه بأجسادهم حتَّى تَحترقَ، والعِياذُ بالله.

لا خيرَ في مُعِيْنٍ وظَهيرٍ عاقِبَتُه إلى النَّار

نُكْتَةُ إسنادِ الكَيِّ إلى الأعضاء المذكورة دونَ غيرها:

تخصيص الجِباه والجُنُوب والظُّهور بالذِّكْر دون غيرِها؛ لأنَّ كلَّ عضوٍ مِن تلك الأعضاء له مَدخَلٌ في عدمِ الإنفاق، وكلَّ عضوٍ منها يُصوِّر هيئةً مِن هيئاتِ الكانزِ المُمْسِكِ في إعراضه عنِ الإنفاقِ بإخراج حَقِّ المال، فَعَذَّبَهم بما كان سببًا في مَنْعِهم وإعراضِهم[3]، وتفصيلُه ما يلي:

بِئسَ الظَّهرُ إذا استقوى بالحرام، وبِئْسَتِ الجِباهُ إذا استشرفَتِ الباطِل

(1) صافي، الجدول: 10/331.
(2) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/166.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 8/5069.

أوَّلًا: أنَّ الأعضاء المذكورة تستغرق الجهاتِ الأربعَ، فأخبر أنَّ العذاب مُحدِقٌ بهم مِن جميع الجهات، فالجِباهُ كنايةٌ عنِ الأمام، والظُّهور كنايةٌ عنِ الخَلْف، والجُنُوب كنايةٌ عنِ اليمينِ واليسار؛ فهي أصولُ الجهاتِ الأربعِ التي هي مقاديمُ البدنِ ومآخيرُه وجنباه[1].

ثانيًا: أنَّ هذه الأعضاء هي مَجْمَعُ كمالِ الجسدِ في جمالِه وقُوَّتِه، "فإذا وقع الكَيُّ في الجَبْهة، فقد زال الجمالُ بالكليَّة، وأمَّا القُوَّة فمَحَلُّها الظَّهْرُ والجَنْبان، فإذا حصل الكَيُّ عليها فقد زالتِ القُوَّة عنِ البدن، فالحاصل: أنَّ حصول الكيِّ في هذه الأعضاء الثَّلاثة يُوجِب زوالَ الجمال وزوالَ القُوَّة، والإنسانُ إنّما طَلبَ المالَ لحصول الجمالِ ولحصول القُوَّة"[2]، و"لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد"[3].

ثالثًا: أنَّ هذه الأعضاءَ تَحكِي هيئة الغنيِّ الكانِز، وهو مانِعٌ شحيح، فالجَبَهة يَستقبل بها الفقيرَ، فإذا سأله أعرَضَ بها عنه، وهو في إعراضه على هيْئَتَين، فهو إمَّا أن يُعرِضَ بِجَنْبِه، كما يَفْعَلُ مَنْ عنده مُسْكَةٌ مِن اكْتِراث؛ لأنَّ الجَنْبَ يُعبِّر عنِ الاستدارةِ الجُزئيَّة، وإمَّا أن يُعرِضَ بظَهرِه، وهي استدارةٌ تامَّة وإعراضٌ مُشِين، يُصوِّر المبالغة في عدمِ رعايتِه واكتِراثِه. فهي تحكي ازْوِرارَهم عن السائل وإعراضَهم عنه وتوليتَه ظهورهم.

رابعًا: أنَّ الأعضاء المذكورة هي أساسُ الجسد ومركزُ بنائِه، فلا يقوم الجسدُ إلَّا بها، فهي معظمُ الجَسَد وأظهَرُ ما فيه، ولا وجودَ للجسد إلَّا بِها، بخلاف سائر الأعضاء، فلا جسدَ بدون جَبْهة، ولا جسد بدون ظَهْر، ولا جسدَ بدون جنْب، بخلاف الأيدي والأرجُل، فلا يَنحلُّ الجسدُ بانحلالِها عنه.

خامسًا: أنَّ هذه الأعضاءَ كنايَةٌ عنِ الأحوال الظَّاهرة والباطنة، التي تتحصَّل للمَلِيء الشَّحيح، بقُوَّةِ كَنْزِه ومالِه، فالجَبْهةُ تعلوها المَسَرَّةُ والنَّضْرَة، والظَّهْر يَقوى ويشتدُّ بِمَسْنَدِه مِنَ المال المكنوز، والجَنْبُ يتقلَّبُ ليلَ نهارٍ في النَّعيم والتَّرف، أي: إنَّ جَمْعَهم وإمساكَهم للمال كان لطلبِ الوجاهةِ بالغِنى والتنعُّم بالمطاعمِ الشَّهية والملابس البهيَّة[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(2) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 16/39.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

سِرُّ ذِكْرِ هذه الأعضاء على هذا التَّرتيب:

التَّرقِّي في التَّحذير، والتَّنبيه على تدارك الأمر قبلَ فواتِ الأوان

نَلْحَظُ في الآية الكريمة ترتيبَ الأعضاء التي كانت سبَبًا في عذاب صاحبها، ولو استدركَ أمرَه قبلَ حلول العذاب، لكان أسعدَ النَّاسِ بها، والكلامُ وإن كان عن كثير مِنَ الأحبار والرُّهبان، ولكنَّ المؤمنين مقصودون؛ بقرينة ندائهم قبل ذلك، فلْيَحذروا أن يكونوا مثلَ هؤلاء الكانزين، ولْيَتدارك كلُّ واحدٍ منهم أَمْرَه، فإن فاته استقبالُ الفقيرِ، وعَبَسَ في وجهه، فلا يَفُوتَنَّه عدمُ الإعراض عنه بجنبه أو بالكلِّيَّة، وإن فاتَهُ الإعراضُ عنه، فلْيَتدارك أَمْرَه قبلَ لقاءِ رَبِّه، فالذي ضَيَّع وفَرَّط في حياته الماضية ينبغي عليه أن يُفِيق؛ فإنَّ العُمُرَ يمرُّ كما تَمُر هذه الأيامُ والشُّهور، ولا يبقى للإنسان إلَّا عملُه الصَّالح. وقُدِّمَتْ الجباهُ لِشرفها، ولكونها مُقَدَّمَ الجسدِ، وأوَّلُ ما يُلْمَحُ عند استقباله، وأُخِّرَتِ الظُّهورُ لِموضِعِها المُؤخَّرِ في الجسد، فهي في الخَلْف، وهي آخِرُ ما يُلمَحُ مِنَ الإنسانِ إذا وَلَّى، وجاءتِ الجُنُوب بينَهما لِتَوسُّطِها بينَ المُقدَّم والخَلْف، أو لِتَوسُّطها في الجسد، أو أنَّه رُوعِيَ حال إعراضِ الغَنيِّ عنِ الفقير السَّائل، فإنَّه يُعرِض عنه بوجهه، ثمَّ بجنبه، ثمَّ يولِّيهِ ظَهْرَه؛ "لأنَّ كلَّ جارحة مِن هذه الجوارح لها مَدْخَلٌ في عدم إنفاق المال في سبيل الله، ولذلك لا بدَّ أن تُعذَّب؛ فَتُكْوَى الجباهُ والجُنوبُ والظُّهور"[1]. وفي ذكْر الأعضاء على هذا التَّرتيب مراعاةٌ لانتظام الإيقاع الصَّوتيِّ للتَّركيب، فقدَّمَ ما تشابه مخرجًا وصَوتًا، وهو الجباه والجُنوب، وأخَّر ما تَبايَن معهما، وهو الظُّهور، بخلاف ما لو أتى التَّركيبُ على غير هذا التَّرتيب، لكان ثَمَّةَ نَفْرةٌ في الإيقاع، وتَعَثُّرٌ في سلاسةِ الصَّوت.

تصويرُ أنواعِ العذابِ المتعدِّدة في كلِّ عضوٍ مذكور

بلاغةُ الإطناب في تعديدِ مواضع الكَيِّ:

جاء قولُه تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 8/5069.

على جهةِ الإطنابِ، في تعديد وسرْدِ مواضع التَّعذيب، دونَ الإيجاز والاكتفاء بأنْ يقول: (فتكوى بها أجسادُهم)؛ ليستَطرِدَ النَّظْمُ في رَصْدِ العذابِ في جميع أحواله ومراحله، مُبالغةً في التَّرهيب منه، ووجْه المبالغةِ في الإطناب بالتَّعديد هنا: إخبارُ السَّامع أنَّ تلك الأعضاء متفاوتةٌ في إحساسها بالألم، فيَتصوَّر أصنافًا متعدِّدةً مِنَ الألم مع كلِّ عضوٍ منها؛ ليَذْهَل بخاطرِه ووجدانِه مع كلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ التَّعذيب، فيَنفعِلَ لها مَرَّاتٍ وكَرَّات[1].

موقع جملة: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾:

جملة: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ في محلِّ رفعٍ نائبُ فاعلِ مَقولِ قولٍ محذوف، وفِعلُ القولِ المحذوفِ متعلِّقٌ بالظَّرف، والتَّقدير: (يُقالُ لهم يومَ يُحمَى عليها: هذا الذي تُكوون به ما جمعتم لأنفسكم وبَخلتم به عن حقِّ الله)، وإضمارُ القولِ كثيرٌ في القرآن الكريم[2].

إذا سِيقَ القولُ لِمَنْ يَعلمُه، فهو إمَّا تذكيرٌ أو تَحسير

معنى اسمِ الإشارة، ودلالةُ افتتاحِ جملة مَقولِ القول به:

قوله: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ مقولُ القولِ مُفتَتَحٌ باسم الإشارة للقريب؛ إيماءً إلى حضورِ المُشارِ إليه وقُربِه، وهو مع قُربِه منهم ونزولِه بهم يُشير إليه تبكيتًا لهم، وإمعانًا في تعذيبهم بالقولِ بعد تعذيبهم بالفِعل؛ ليَجْمعَ إلى تعذيبِهم الجسديِّ تعذيبَهم النَّفسيِّ، بالإشارةِ إلى ما هم مُتلبِّسينَ به، كَمَن يُذَكِّر إنسانًا بعيبٍ فيه لا يَخْفَى عليه، فيَزيدُه حسرةً، واسم الإشارة يعود إلى الكنوز المَحْميِّ عليها، أو يعود إلى الفعل النَّازِلِ بهم، وهو التَّعذيبُ بالكَيِّ[3].

يحصُل العذابُ بالقول والفِعل، كما تتألَّم النَّفْسُ بالقولِ والفِعل

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

مجيءُ صِلة الموصول على تركيب الماضي ﴿كَنَزْتُمْ﴾، مُشْعِرٌ بفواتِ الفُرصة وانقضاء الأمْر، وتصويرٌ لعمَلٍ مُحقَّقٍ فعلوه وفَرَغوا منه،

تذكير الجاني بِسَببِ عقوبتِه لإقامةِ الحُجَّة عليه وانتهاره

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/404، وصافي، الجدول: 10/331.
(3) صافي، الجدول: 10/331.

وخِطابُهم بتلك الصيغة جارٍ مجرى إشهادِهم على أنفسِهم بما تحقَّقَ عندهم؛ تذكيرًا للمُجرِم بأنَّ ما استحقَّه مِنَ العقوبة هو مِن جَرَّاء ما ارتكبه عمْدًا، وهو مُحقِّقٌ له، مُتمكِّنٌ منه، وفي قوله: ﴿كَنَزْتُمْ﴾ على الماضي إشعارٌ بأنَّهم لم يتوبوا، وأنَّهم ماتوا على هذا الفِعل.

بلاغة الإطناب بذِكْر المتعلَّق:

قد يَضِرُّ الإنسانُ نـفـسَـه أبـلـغَ الضَّرر مِن حيثُ يريد نفْعَها

لا يَنْفَكُّ النَّظمُ الكريم في هذه الآية الجليلة عن مُتابعةِ أولئك المُسيئِينَ في إدارةِ أموالِهم، بالتَّبكيتِ والتَّحسير في كلِّ لفظةٍ مِن ألفاظه، فقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ زيادةٌ في جُرعةِ العذابِ والألَم، وفيه: مُقابلةٌ بديعةٌ بينَ قصدِهم مِنْ فِعلِهم، وما آلَ إليه حالُهم، فتركيبُ ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ اللَّام فيه لِتعليلِ قَصْدِهم مِن فِعلِهم، وأنَّهم ما كَنَزُوا إلَّا بقصدِ نفْعِ أنفسِهم وإمتاعِها، والسَّعي في لَذَّتِها وراحتِها، ولكنَّهم جلَبوا لِهذه الأنْفُس عاقبةَ الألَم بعدَ اللَّذَّة، والعناءَ المُقيمَ بعدَ الرَّاحة الواهِمَة، فقولُه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ يستدعي حالَين متقابلتَين؛ أحسنُهما مَضَتْ وانقضتْ، وأسوأُهما ما هُم فيه مِنَ العذاب والألم، وهو تنديمٌ وتجزيعٌ وفسْخٌ لعزْم النَّفْس، حين تُوضَع بينَ تصوُّر حالِها القديمة العزيزة، وحالِها الحاضرةِ البائسة، ويزدادُ الألمُ حين تكون نفْسُ الإنسانِ هي التي جَنَتْ عليه بذلك، وأنَّه المُتسبِّب والمُباشِر في هذا التَّحوُّل المشؤوم، الذي لا رجوع فيه ولا تَدارُك، والعياذُ باللّٰه. ويَصِحُّ أن تكون اللَّام في قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ هي لامُ العاقبة والصَّيرورة، باعتبار أنَّ هذا القول ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يُقالُ لهم يومَ القيامة، وما كَنَزُوه تحوَّل عن صُورته مِن أداة إمتاعٍ إلى أداة تعذيب، فكأنَّه يقول لهم: هذا ما كنزتموهُ لإضرارِ أنفسِكم، تمامًا كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8][1].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/179.

موقع جملة: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾:

إيكالُ الجاني إلى مُلابَسَةِ عِقابِه تَيْئِيسًا له

الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ هي الفصيحة، وهي لِرَبْطِ مَدْخولِها بشرطٍ محذوفٍ تقديره: (إنْ كَنَزتُم ولم تُنفِقوا فذوقوا...)، فقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في محلِّ جزمٍ جوابُ الشَّرط المُقدَّر، أو الفاء عاطفةٌ لرَبطِ المُسبَّبِ بالسَّبب، فهي تفريعٌ عن جملة: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، فهو عطفُ توبيخٍ على تنديم[1].

براعةُ الاستعارة:

انفعالُ الجوارحِ لما تَحُسُّه تَذوُّقًا له بما يُناسِبُ وظيفتَها في الشُّعور

أصل الذَّوق: الإحساسُ بطعم الشَّيء، وهو في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾، مُستَعارٌ للإحساسِ بالأَلَم، حيثُ شَبَّه إحساسَه الأليم بسُوء عاقبتِه، بذَوقِ الطَّعام الكريهِ الذي لا يُسِيغُه الآكِل، على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة، فالمشبَّه به محذوفٌ، ولازمُ المُشبَّه به – وهو ذَوقُ الطَّعْم – مُثْبَتٌ للمُشَبَّه على جهة الاستعارة التَّخَيُّليَّة، فكأنَّه قيل لهم: ذُوقوا طَعمَ ما كنتم تَكْنِزون[2].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كُنتُمْ﴾، وأثرُها في المعنى:

أصعبُ ما يُواجِهُ الجاني أنْ يتَذَكَّر جنايتَه، ويَعْجِزَ عن تَدارُكِها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ اسمٌ موصول، أو حرفٌ مصدريٌّ يُؤَوَّل مع مدخولِه بمصدر، وجملة: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ على الأوَّل: صِلةُ الموصول الاسميِّ، والعائدُ محذوفٌ، والمعنى: ذُوقوا ما تَكنِزونَه. وعلى الثَّاني: صِلة الموصول الحرفيِّ، ولا عائدَ، والمعنى: ذوقوا كَنْزَكُم. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، يكون الغَرضُ مِنَ الموصول التَّنبيهَ والدّلالةَ على غَلَطِهِم فيما كَنَزوا، وأنَّهم غُبِنُوا فيه؛ وذلك بقصد تحسيرِهم وإيلامِهم، تتْميمًا لمعاني التَّوبيخ المُتَسَلْسِلَةِ في تركيب النَّظم الجليل. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، ففائدةُ المصدرِ المؤوَّل منها ومن مدخولها: إرادةُ

(1) صافي، الجدول: 10/331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

المَصدريَّةِ مع الفعل؛ إذِ الموصولُ الحرفيُّ ﴿مَا﴾ وُصْلَةٌ معنويَّة بينَ المصدر والفعل؛ لإرادةِ مَدلولَيْهِما معًا، مِن إفادةِ مجرَّد الحَدَث، وثُبُوتِ العِبْرةِ وديمومتِها المستفادةِ مِن معنى المصدر، وهو كونُهم كانزين، وإفادةِ زمانِه لاستحضارِ هيئتِهم العامِلَة؛ لأنَّه عمَلٌ استَحَقُّوا جزاءَه، فَرُوعِيَ فيه الزَّمَن ﴿كُنتُمْ﴾، و﴿تَكْنِزُونَ﴾، والفِعليَّةُ والاسميَّةُ كلاهما مُرادٌ مِنَ المصدر المؤوَّل الذي تُوسِّلَ إليه بالحرف المصدريِّ، ولو عَبَّر بالمصدر الصَّريح لخلا التَّركيب مِنَ الدِّلالة على الزَّمنيّة، ولَمَا حصل الاحتمالُ في كون ﴿مَا﴾ موصولةً، فيَضِيْقُ المعنى بالمصدر الصَّريح[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ المضافِ:

الأعيانُ المَكنوزة تَـنْـقـلِـبُ أداةً لـلألَـم بـعـدَ أنْ كانت أداةً لِلَّذّة

الكلام في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ على حذف مضافٍ يقتضيه المقام، والتَّقدير على موصوليّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ الذي كنتم تكْنِزون، والتَّقدير على مصدريَّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ كَنْزِكُم، أو جزاء كونِكم كانزين. ونُكْتَةُ حذفِ المضاف وعدمِ التَّصريح به: الإيجازُ؛ لِوضوحِه وعدم خفائه، ولِلإسراع بِهم في اقتحام ما يُعذَّبونَ به مِنَ الكَنْز ومُلابسته، فلا يُفْصَلُ بينَهم وبينَه بلفظِ المُضاف، أو لإرادةِ المالِ المكنوز نَفْسِه مِن غير تقدير مُضاف؛ لأنَّهم يتذوَّقونَ هذه الأعيانَ المكنوزةَ نفْسَها، وهم يُعذَّبون بها، فهي مَذُوقَةٌ لهم حين تَنْقَلِبُ عليهم في الآخِرةِ وبالًا ونَكالًا[2].

سرُّ دخولِ فِعل الكون: ﴿كُنتُمْ﴾:

لا فُرصَةَ للجاني في الإنـكـار؛ إذا وُوْجِهَ بما يُحقِّقُ جِنايتَه

جاء بفِعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، وكان يَصِحّ أن يُقال: (فذوقوا ما تكنِزون)؛ للدّلالة على ثبوتِ

(1) السُّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180، 186، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين الحلبي، الدُّر المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/217، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

خبرها لاسمها[1]، ولِتحقيقِ وَصْفِهم بالعمل الذي استحقُّوا الجزاءَ عليه، فَحَقَّقَ اتّصافَهم بالعمل لِتأكيدِ استحقاقِهم لِعقابِه، وفي إيراد ﴿كُنتُمْ﴾ بصيغة الماضي مع ﴿تَكْنِزُونَ﴾ بصيغة المضارع نُكْتَةٌ بديعة، وهو الجمْع بين الدّلالة على تحقيقِ أفعالِهم في الماضي بدلالةِ لفظ ﴿كُنتُمْ﴾، والدّلالة على استحضار هذه الأفعال وهم يُزاولونَها ويُكَرِّرونها، ويُجَدِّدون وقوعَها مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، بدلالة المضارعة في ﴿تَكْنِزُونَ﴾، ففي هذا التَّركيب البديع دَمْجٌ للحال الماضية مع الحال الحاضرة وقتَ حدوث الفِعل، قبلَ أن يَمضِيَ وينقضِيَ، ولا يَخفى ما في التَّعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾ في هذا التَّركيب مِنَ الدّلالة على ذواتِهم، واستحضارِ هيئتِهم وهم يَكنِزون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحماء والإيقاد:

الإحماءُ: هو الإيقادُ والإشعالُ على الشَّيء بالنَّار حتَّى يَلْتهبَ ويَحمَى، فيَصيرَ ساخِنًا شديدَ الحرارةِ مُحرِقًا، وأمَّا الإيقاد: فهو مِنَ الوَقود، وهو مادَّة حياةِ النَّار، أي: اشتعالها، ولذا يُقال على الحطَب، الذي يكون سببًا في تكوُّنِ الاشتعالِ وإنتاجِ اللَّهَب، ويُقال على اللَّهَب ذاتِه، والشُّعلَةِ نفْسِها، فالإحماءُ هو نتيجةُ الإيقاد، كما أنَّ تولُّدَ الحرارةِ هو نتيجة التَّسخين، فلا إحماءَ للأجرام مِن غير إيقادٍ عليها. هذا، والوَقودُ له حرارة وحَمْيٌ في ذاتِه؛ لأنَّه مادّة النَّار، إلَّا أنَّه ذُو اشتِعالٍ أيضًا، وأمَّا الحَمْيُ فلا يلزم أن يكون مُشتعِلًا، بل قد يكون حارًّا مَحمومًا مِن غير اشتعال[2].

الإحـمـاءُ هو نتيجة الإيقاد

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/336.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمى، وقد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»